«الدائرة المقدسة» لبسام شِمس الدين: يشكل العنصر الغريب تهديدا لسلطة الحاكم المستبد!

محمد عثمان*

عالق في شـــرك ظروف قاهرة. لذا، ربما، هو ميال إلى الصمت، أو بالأحرى إلى الاســـتغراق في دوشـــة عالمه الداخلـــي. وإذا ما تحـــدث غالبا ما تخونه اللغة (أقصد لغة التواصل اليومي)، فتخرج الكلمـــات من فمـــه مرهقة بعض الشـــيء ومبتورة وخافتة، كما لو أنه يســـتلّها من عمق سحيق. وبما أن الأمـــر كذلـــك، بما إن لغة الـــكلام تخونه، فإنه يخونها بالمثل، يخونها في الكتابة منتجاً نصاً تحيد لغته عن سواء اللغة المكرسة والفخمة والمصطنعة، لغة موسومة بما يسميه جل دولوز بـ«التلعثم»، ليس التلعثم كقيمة ســـلبية، لكن بما هو استعمال خاص للغة، اســـتعمال يستعصي على التقليد أو الانتحال أو التماهي مع اســـتعمال كاتب آخـــر. التلعثم بما هو «امتلاك لســـان هامشي داخل لساننا (...) وأن يكون (الكاتب) كأجنبي داخل لســـانه الخاص...»، أي بما هو سمة فارقة لكل كاتب أصيل. هكذا بدا لي الروائي بســـام شـــمس الدين فـــي أول لقاء لي معه. كان ذلك منذ قرابة أربعة أعوام. كاتب يحمل على عاتقه قدراً خاصا: أن يشـــق مســـاره الأدبي في مواجهة أقدار صعبـــة وفي خضم ظروف غير مواتية بالمرة، لعل أســـهلها استدعاءً إلى الذهن أنه كان، علـــى الـــدوام، مضطراً -بما أنـــه ينتمي إلى السلك العسكري- إلى أن يعكف على مسوداته في الثكنات والمواقع العسكرية، حيث الحياة الجماعية تتعارض مع متطلبـــات الخصوصية التي تحتاجها الكتابة؛ معتمدا، في الأثناء، على موهبته الخاصة والخارقـــة في تحويـــل الصعوبات التـــي يواجهها إلى عوامل نجاح. تشـــهد على ذلـــك روايته الثانية «الدائرة المقدســـة» التي أنجزها -حســـب ما جاء في التدوين الافتتاحي- في مدينة مأرب، موضحا أســـباب وجوده هناك بلغة تحمل سماته الأسلوبية، على النحو التالي: «ولـــن أتعرض لظروف وجودي

* قاص وروائي من اليمن.

في هذه المدينة العجيبة، لأنها بمجملها قصة، حيث أصدر مديري في العمل قـرارا بنفيي إليها، وهي عقوبة يخشاها جميع العاملين، ويشفقون على من يتعرض لها، ولكنني خرجت منها بهذه الرواية...».

في الظاهـر تبـدو «الدائرة المقدسـة» رواية تاريخيـة، أي تتصدى لسـرد أحـداث وقعت في التاريـخ؛ وذلك لأنها تنجح في إيهامنا بأنها كذلك. لكن من لديه أدنـى معرفة بالتاريخ اليمني القديم سـيعرف أن الأمر ليس على هذا النحو. فالرواية وإن كانت تتخذ من الماضي القديم إطاراً عاماً لها، وبالتحديد تلك الحقبة الزمنية التي شهدت تزامنا بين الممالك اليمنية القديمة (معين، سـبأ، قتبان وذو ريدان، حمير... إلخ) فإنها تكتفي من ذلك الماضي ببعض المسـميات الجغرافية والتاريخية، كأسـماء الممالـك وعواصمهـا وبعض الإشـارات إلى طقوس وممارسـات دينيـة، ماعدا ذلك، فهـي لا تتقيد كثيرا بوقائع التاريخ. بالأحرى، تقـوم باختـراع تاريـخ خاص ومـوازٍ هو محض ابتـكار، متوسـلة إلى ذلـك مخيلة المؤلف، التي تتمتع بمقدرة مدهشة على التخييل والأسطرة وتوليد الحكايات، حيث يتداخل الواقعي مع الخرافي، وقصـص الحب مع قصص الحرب، والدين بالسياسة. ولعل هذا التخفف من التاريخي لصالـح المتخيل قد ضمـن للرواية ميـزة التوافر على مرونة كافية مكنتها من عديد إسـقاطات غير مباشـرة للحاضر على الماضي؛ الأمر الذي يفسر وجـود موضوعات هي فـي صميـم الاهتمامات المعاصرة في سـياق رواية عـن الماضي، وذلك بعد سـلٍّ هذه الاهتمامات من تجسداتها الراهنة وبثها في تلافيف أحداث الماضي، بحيث تبدو مغموسـة فيـه بالكامل وكأنها جـزء لا يتجزأ منه، في إحالة مضمرة إلى الحاضـر الماضوي، أو إلى «الذي كان مازال يأتي» حسب البردوني. للتدليل، سأشير إلى ثلاثة موضوعات تحضر بقـوة في الرواية: الأول: العلاقة بين رجل الدين والسـلطان، ويمثل طرفي العلاقة كلٌّ من شـيزار (كاهن المقة) وشراح (ملك مملكة جنات) ومن بعده ابنه الملك كرب. وغني عن القول أن علاقتهما تبدو متسـمة بالتواطؤ والمنافع المتبادلة التي يسديها طرفا العلاقة بعضهما لبعض حتـى في أوج لحظات الجفـاء بين الجانبين. ففي الوقت الذي يقوم به رجل الدين بإضفاء القداسـة علـى الحاكم، مبرراً لـه طغيانه، يضمن الطرف الثانـي لرجل الدين مكانـة مائزة داخل التراتب الاجتماعـي القائـم، تتيح له التمتـع بالامتيـازات التي يحوزهـا بحكـم مكانتـه هذه. الموضوع الثاني يتمثل في الصراع بين البشـر على أسـاس عرقي، أي بين ذوي البشرة السمراء وذوي البشرة السوداء. وترجع الرواية وجود الأخيرين في اليمـن إلى رغبة الإمبراطور الروماني فـي زعزعة نظام الحكم فـي اليمن. ولكي يتسـنى له ذلك يكلف التاجر الروماني فالوس بمهمـة إغراق السـوق اليمنيـة بالأحباش، تحت سـتار تجارة الرقيق. وبقطع النظر عن المصداقية التاريخية للواقعة وعن الموقف الذي تتخذه الرواية، والـذي يلتبس أحيانا بالتشـكيك فـي يمنية ذوي البشـرة السوداء؛ فإن ما تنجح الرواية في الإيحاء به على نحو باهر هو: إلى أي مدى يشـكل العنصر الغريب تهديدا لسـلطة الحاكم المستبد؟ الموضوع الثالث يتمثل في الصراع بين الأجيال، تأسيساً على الـرؤى والأفكار والاتجاهـات التي يقطع جديدها

مع قديمها. فمن الشائع أن الصراع بين الأجيال، لاعتبارات تاريخية واجتماعية، سمة غالبة على المجتمعات الحديثة قياسا إلى المجتمعات القديمة. فنظرا لاتسام الأولى بالديناميكية والتغير المستمرين، تغدو أجيالها التالية عرضة لتأثيرات تقطع مع مزاج وعادات الأجيال السالفة، بحيث تتخذ العلاقة بين جيلين متتاليين طابع التوتر والصراع. وذلك على خلاف المجتمعات القديمة التي ينعكس جمودها ورتابتها وهيمنة «سلطة الماضي الأزلية» عليها، بتعبير ماكس فيبر، على هيئة تهادن ومصالحة بين الأجيال. آخذين هذا بالاعتبار يسهل علينا، حينئذ، إدراك وجه الإسقاط الذي تنجزه الرواية. فهي تقدم لنا صورة لهذا النوع من الصراع الذي يتجاوز المصالح المادية المباشرة إلى المستوى الرؤيوي والفكري. يدور الصراع بين جيلين، هما جيل الآباء الذي يصطف حول ملك مملكة سبأ (شراح)، ويتمثل الثاني في أبناء الأقيال ويقف على رأسه شام ابن الملك شراح. فهؤلاء الأخيرين، وتحت تأثير الأفكار المستنيرة لمعلمهم اليوناني «حانون» الذي يستقر به المقام على مشارف مملكة «جنات» عاصمة سبأ، يشرعون في المطالبة بتغيير الدائرة المقدسة التي تحضر هنا بوصفها، في الآن نفسه، رمزا مزودجا، للسلالة الحاكمة ولمجموعة القوانين والتشريعات التي تسيَّر الأمور اليومية للمملكة. وحجتهم في ذلك أن هذه القوانين تم تزييفها وحرفها عن فكرة العدالة التي تقوم عليها الدائرة المقدسة الأصلية، وذلك على يد الملك وبالتواطؤ مع كاهن معبد المقة، استجابة لنوازعهما في الاستئثار والبطش. وينتهي الصراع بفشل مشروع الأبناء بالتزامن مع اغتيال الملك شام بُعيد وصوله إلى الحكم بوقت وجيز.

تستدعي «الدائرة المقدسة» إلى الرواية اليمنية الشابة أيضاً شيئاً من النفس الملحمي الذي تعرفه السير الشعبية. إلا أنها -وهنا تكمن المفارقة- إذ تستعيد هذا الملمح فليس بهدف تكريس سلطة الملوك ورموز القوة، خالعة على أفعالهم نكهة المآثر والبطولات، لكن لكي تهجوهم وتزري بهم، هاتكة عن هذه الأفعال ثياب النبل القشيب، مظهرة لنا تواريخهم المخضبة بالقتل والمطامع الدنيئة. إضافة إلى ما سلف، تتمتع الرواية برحابة عالمها الروائي. فعلى المحور الزمني تمتد أحداثها على مدى ثلاثة أجيال متعاقبة من ملوك سبأ. وعلى المحور المكاني تتوزع أحداثها جغرافيات عديدة تتراوح بين عواصم الممالك اليمنية المختلفة ومصر والحبشة.

• صدرت الرواية عن مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، في ٤٣٧ صفحة.